البناء
السنة السادسة /الاثنين / 5 كانون الثاني 2015 / العدد 1676
Sixth year / Monday / 5 January 2015 / Issue No. 1676

السينما السوريّة في العام المنصرم 2014.. عشرات الأفلام الروائيّة والقصيرة والطويلة

مريم

مطر حمص

أهل الشمس

توتر عالي

بانتظار الخريف

كتب سامر اسماعيل من دمشق ـ (سانا): ذهبت المؤسسة العامة للسينما هذا العام نحو تكريس السينما في الحياة الثقافية السورية، منجزةً عشرات الأفلام الروائية والقصيرة والطويلة رغم الأزمة التي تمر بها سورية. واستطاعت المؤسسة كسر الحصار الظالم وغير المبرّر على الفيلم السوري في المهرجانات العربية والدولية، فحصد فيلم «مريم» لباسل الخطيب الذي أنتجته المؤسسة سبع جوائز متتالية، كان آخرها جائزتا النقاد والتحكيم في مهرجان طريق الحرير الصيني.

في مجال الأفلام الروائية الطويلة، حقق المخرج جود سعيد شريطه المرتقب عن مدينة حمص تحت عنوان «مطر حمص» عن سيناريو للكاتبة سهى مصطفى، بعد شريطه «بانتظار الخريف»، وهما الفيلمان اللذان دأب من خلالهما سعيد على تحقيق سينما راهنة تراكم خبراتها من خلال البحث عن معادل بصري قادر على محاكاة المأساة وتشريحها ومجازاتها/ عبر استنطاق المكان والأخذ عنه في حضور أبطاله.

المخرج باسل الخطيب تابع هذا العام أيضاً إكمال تصوير ثلاثيته السينمائية عن المرأة السورية في زمن الحرب، فبعد «مريم» (2012) أنجز تصوير فيلمه «الأم» الذي افتتحت المؤسسة عروضه في صالة سينما ستي قبل إنجاز تصوير فيلمه الجديد «أهل الشمس»، وفي الفيلمين يقدم الخطيب مادته الزمنية والبصرية عن الحرب، مستلهماً أجواءه الجمالية للصورة من واقع الأزمة في سورية، إذ تعبر شخوص أفلامه عن إرادة الإنسان السوري في مواجهة العدوان.

محمد عبد العزيز أنجز بدوره شريطه المؤثر «حرائق البنفسج» من إنتاج المؤسسة العامة للسينما عن نص من كتابته، بعد فيلمه الروائي الطويل «الرابعة بتوقيت الفردوس» وتعرض المؤسسة هذين الفيلمين في شباط المقبل ضمن مهرجان خاص بإنتاجها للأفلام الروائية الطويلة والقصيرة في دار الأوبرا السورية، ليكون فيلما عبد العزيز في صدارة الأفلام التي أنجزتها المؤسسة عن الأزمة وفق مخيلة سينما المؤلف الجديدة التي تنهل من معين سينمائي عريق احتفلت به مؤسسة السينما هذا العام بمرور نصف قرن على إنشائها.

كذلك أقامت المؤسسة العامة للسينما في ذكراها الخمسين العديد من المهرجانات والتظاهرات السينمائية المهمة، في مقدمها «مهرجان سينما الشباب والأفلام القصيرة الأول» الذي أقامته بين 16 و21 حزيران الفائت في مسرح الدراما في دار الأسد للثقافة والفنون، محتفية بتجارب الشبّان ورؤاهم عبر مشروعها الكبير الذي أطلقته بنجاح للعام الرابع على التوالي، فإلى جانب الأفلام الروائية القصيرة التي أنتجتها المؤسسة تصدر أكثر من سبعين فيلماً في قائمة أفلام منح دعم الشباب.

أنتجت المؤسسة العامة للسينما هذا العام العديد من الأفلام الروائية القصيرة، في مقدمها فيلم «توتر عالي» لمخرجه المهند كلثوم، وفيلم «ابتسم فأنت تموت» لوسيم السيد وفيلم «الرجل الذي صنع فيلماً» لمخرجه أحمد إبراهيم الأحمد، وفيلم «وليمة مسعود» لوضاح الفهد، وفي هذه الأفلام رؤى متباينة عن الأزمة في سورية، مستعيدةً ألق الأفلام السورية القصيرة التي تنبئ دوماً بمخرجين وكتاب واعدين يطمحون الى إنجاز تجاربهم الروائية الطويلة لاحقاً.

المخرج عبد اللطيف عبد الحميد لم يغب عن مهرجان السينما السورية إذ بدأ التحضير لتصوير فيلمه الجديد «حب في الحرب» من تأليفه ويتناول فيه مخرج «رسائل شفهية» وفق حساسيته المعهودة قصة حب في زمن الحرب بين مدينتي دمشق وطرطوس، ليعود عبد الحميد هذا العام إلى واجهة الرؤى السينمائية بعد إنجازه فيلمه الروائي الطويل «العاشق» المتوقع عرضه قريباً في مهرجان الأفلام الطويلة أيضاً.

الجيش العربي السوري كان موضوع الفيلم الوثائقي الكبير الذي أنجزته المؤسسة العامة للسينما هذا العام من إخراج نضال دوهجي وعنوانه «حماة الديار» وحقق دوهجي هذا الشريط بالتعاون مع المخرج محمد عبد العزيز، حول بطولات الجيش العربي السوري وانتصاراته الكبرى في حرب تشرين التحريرية ووقوفه في وجه العدو «الإسرائيلي».

في تظاهرة «أفلام حديثة من السينما العالمية» التي قدمت في جزءين في صالة الدراما في دار الأسد للثقافة والفنون عرض أكثر من 140 فيلماً من إنتاج العامين الحالي والفائت للكبار وللأطفال، بعضها حاز جوائز عالمية وشارك فيه نجوم كبار، وافتتحت عروض هذا المهرجان الحائز أوسكار 2014 «اثنا عشر عاماً من العبودية».

أخبار سينمائيّة

مهرجان للسينما الوثائقيّة في طهران

على مدى سبعة أيام (من 30 تشرين الثاني الفائت إلى 6 كانون الأول)، استضافت طهران عشرات الأفلام الوثائقية من إيران وخارجها في «مهرجان الحقيقة للأفلام الوثائقية»، ويعتبر أهم مهرجان للأفلام الوثائقية في الشرق الأوسط، ومن أبرز المهرجانات الخاصة بالأفلام الوثائقية عالمياً.

حصد الفيلم الإيراني «آتلان» (63 دقيقة) أربع جوائز في الإخراج (في القسم الدولي والوطني للأفلام الطويلة)، والمونتاج والتصوير. وكان المهرجان خصص قسماً للأفلام الوطنية الإيرانية، وقسماً آخر للأفلام الدولية تتوزع بين القصيرة والمتوسطة والطويلة. ويروي فيلم «آتلان» لمخرجه معين كريم الديني قصة شاب وأبيه وأشقائه يعملون في تربية الخيل، ويعتبر الحصان بالنسبة إليهم أهمّ ما يملكون في الحياة. وتدور حوادث الفيلم في منطقة تركمن صحرا في أقصى شمال إيران واستمرّ إنتاجه سنتين ويتحدث عن حياة هؤلاء الأشخاص بإدبارها وإقبالها.

الفيلم الآخر الذي عرض في الأيام الأولى من المهرجان وحصد ثلاث جوائز هو «جنارستان» (70 دقيقة) للمخرج الإيراني هادي آفريده، إذ قد حاز الجائزة الأولى لأفضل فيلم في قسم «المدينة»، المخصص للأفلام التي تتعلق بالمدينة ومظاهرها. كما نال الفيلم الجائزة الأولى للصوت والأولى للنص، ويعالج الفيلم قضية شارع «ولي عصر» (شارع بهلوي قديماً) في طهران، وهو أطول الشوارع في الشرق الأوسط (17 كيلومترا) ويتميز بأشجاره القديمة فارعة الطول التي تطل على جانبي الشارع من بدايته في جنوب المدينة حتى نهايته في الشمال، وينخفض عدد هذه الأشجار بنسبة كبيرة خلال مئة عام من تكوينه.

أما الفيلم الإيراني الذي حاز الجائزة الأولى في البحث السينمائي، فعنوانه «ستة قرون وستة أعوام» (82 دقيقة) للمخرج مجتبى مير طهماسب، ويتحدث عن فريق موسيقي يحاول الوصول إلى تأليفات موسيقية تعود إلى ستة قرون لأشهر مؤلف ومنظر موسيقي إيراني، هو عبدالقادر مراغه أي. وبعد ست سنوات من البحث يستطيع الفريق الحصول على أعمال للرجل نقلت قبل عدة قرون من إيران إلى تركيا، ويبادر إلى نشر هذه الأعمال الموسيقية التي غطتها السنوات. ويتابع المشاهد هذه الاكتشافات الفنية وميلاد التأليفات والألحان والنغمات الإيرانية المنسية من جديد.

أما الفيلم القصير «دقيقتان» الذي حاز الجائزة الأولى للفيلم القصير في القسم الدولي فهو للمخرج الإيراني الشاب محمد باقر شاهين وصوّر في قرية «المالكية» شمال سورية. ويدور في مشهد يشبه المشاهد المسرحية حيث تروي طفلة سورية ما حصل لها ولأهلها، وهنا يتجلى انعكاس المشاعر الطفلية في الحرب.

الفيلم الآخر الذي لفت الأنظار في المهرجان بموضوعه الغريب كان للمخرج الإيراني حسين عباسي وعنوانه «أنا لست امرأة» (52 دقيقة). ويتناول حياة امرأة تعيش في «الأهوار» (المستنقعات الواقعة جنوب غرب إيران)، حيث أضحت منذ طفولتها إلى اليوم وهي في السبعينات من عمرها، رجلاً في المظهر والملابس والحياة الإجتماعية. أرادت أن تكون رجلاً في مجتمع تقليدي لا يعير للمرأة اهتماماً كبيراً، بل يحتقرها في معظم الأحيان، وهي تجلس اليوم مع الرجال وتخرج معهم وتصطاد السمك برفقتهم وترتدي الزي التقليدي العربي مثلما يرتديه رجال منطقتها.

ضمّ المهرجان أقساماً فرعية أيضاً خارج المسابقة الرسمية وضمنها، بينها عروض أفلام تتعلق بالأنثروبولوجيا ومعرفة الشعوب الأخرى وتقاليدهم الخاصة، كما خصص قسماً للأفلام المتعلقة بالصناعات اليدوية، وقسماً للأفلام المتعلقة بالمدن ومكوناتها المدنية. ومن أبرز الأفلام الأجنبية التي شاركت هذا العام في المهرجان الفيلم المشهور «خمس كاميرات محطمة» (90 دقيقة – فرنسا، فلسطين)، من إخراج الفلسطيني عماد برناط، و«الإسرائيلي» جاي داڤيدي ويحكي من خلال قصة عماد وكاميراته الخمس المحطمة قصة المقاومة الشعبية السلمية لقرية بلعين الفلسطينية ضد جدار الفصل والاستيطان على أراضي القرية. وصوّر عماد برناط، وهو مزارع فلسطيني، مشاهد الفيلم كلها بواسطة الكاميرا التي اشتراها للمرة الأولى عام 2005، بدءاً بتسجيل ولادة ابنه الأصغر. ثم انضم المخرج جاي داڤيدي عام 2009 إلى هذا العمل. ويستعرض الفيلم حوادث المقاومة الشعبية السلمية من خلال قصص كاميرات برناط المحطمة، كما يتتبع تطور عائلة المخرج على مدى خمس سنوات من الحوادث.

ضمن برامج المهرجان، كان تكريم المخرجة الوثائقية الهولندية المشهورة هدي هانيغمان من خلال عرض أربعة من أشهر أفلامها هي «الزوج الجيد، الابن الغالي»، و«النسيان» و«المعدن والماليخولية»، و«الخلود».

«خلف الأبواب المغلقة» للمخرج المغربيّ بنسودة يتوّج في الهند

توّج فيلم «خلف الأبواب المغلقة»، للمخرج المغربي محمد عهد بنسودة بجائزة أفضل فيلم ضمن مسابقة الأفلام الدولية لـ«المهرجان الدولي الثالث للفيلم» نيودلهي، بين 35 فيلماً من أوروبا وأميركا، في حين فاز الفيلم المصري «العودة» للمخرجة نيفين شلبي بجائزة الفيلم القصير بين 81 فيلما، ليحرز المخرجان جائزتي المسابقة الدولية لهذا المهرجان الذي يتزامن انعقاده مع الاحتفالات بالذكرى المئوية للسينما الهندية.

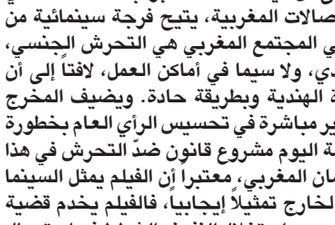

يقول المخرج المغربي محمد عهد بنسودة إن الفيلم يعرض للمرة الثانية في الهند إذ سبق أن شارك في المهرجان السينمائي الدولي لمدينة غوا الهندية وحصل فيه على جائزة المرأة الهندية، مشيراً بنسودة إلى أن فيلمه «خلف الأبواب المغلقة»، الذي يتصدر اليوم شباك التذاكر في الصالات المغربية، يتيح فرجة سينمائية من خلال معالجته ظاهرة حساسة في المجتمع المغربي هي التحرش الجنسي، سواء اللفظي أو الفكري أو الجسدي، ولا سيما في أماكن العمل، لافتاً إلى أن هذه الظاهرة تعانيها أيضاً المرأة الهندية وبطريقة حادة. ويضيف المخرج المغربي أن الفيلم يساهم بصفة غير مباشرة في تحسيس الرأي العام بخطورة هذه الآفة الاجتماعية، مؤكداً أن ثمة اليوم مشروع قانون ضدّ التحرش في هذا الصدد طرح أمام الحكومة والبرلمان المغربي، معتبراً أن الفيلم يمثل السينما الإيجابية التي تمثل المغرب في الخارج تمثيلاً إيجابياً، فالفيلم يخدم قضية اجتماعية ذات أبعاد اقتصادية تنجم عن استغلال النفوذ والشطط في استعمال السلطة داخل أماكن العمل.

«فتزوّج روميو جولييت» فيلما قصيرا ساخرا... وفائزاً

مجدّداً يعود فيلم «فتزوج روميو جولييت» للمخرجة التونسية الشابة هند بوجمعة إلى ساحة الحدث بترشحه لأوسكار أفضل فيلم قصير لعام 2016، بعد نيله جائزة أفضل فيلم قصير في مسابقة «المهر القصير» ضمن فعاليات «مهرجان دبي السينمائي الدولي» في دورته الأخيرة 2014 التي انتهت قبل أيام.

يقودنا العنوان مباشرة إلى حالة من السخرية المخفية والمعلنة من أعظم قصص الحب التي صدّرها لنا الأدب العالمي عبر التاريخ، كأنه يقول: هذا ما حدث بعدما تزوّج العاشقان. ما يعني أن تلك القصة الرومانسية العظيمة التي أبدعها شكسبير لم تكن لتكتب لو تزوّج روميو وجولييت وجمعهما منزل واحد.

مدة الفيلم دقيقة و17 ثانية، ويختصر منطق الحياة الزوجية في كل زمان ومكان، ومن الألف إلى الياء. فمهما كانت قصة الحب التي تجمع الرجل بالمرأة قبل الزواج قوية ومثيرة ورومانسية، فإنها ستنطفئ قليلاً وربما كثيراً، وأحيانا تخبو نهائياً بعد الزواج، لينتصر الروتين بمشاكله اليومية المقيتة التي تنتج من حالة العشرة الدائمة. ويغدو الأشخاص عندئذٍ تماماً مثل للشخصيتين في هذا الفيلم.

ترشّح الفيلم للأوسكار يؤكّد براعة منجزيه وفي مقدمهم مخرجته الشابة التي تروي في أقل من دقيقتين قصة تتكرر يومياً مع معظم الأزواج في العالم إن لم يكن جميعهم، من دون إشارة إلى أي علامة مميزة تشير إلى جنسية الزوجين أو دينهما. ما يجعل الحكاية المجسّدة أمامنا قابلة للحدوث هنا وهناك، أمس واليوم وغداً.

تعتمد المخرجة الكاميرا الثابتة في التصوير. تضعها أمام حائط يفصل بين مكانين (غرفة الجلوس والمطبخ)، في إشارة إلى السور الذي ينمو في العلاقة ليفصل بين الشخصين عاما فآخر، إلى أن يتحول إلى سور حقيقي قائم فعلاً داخل المنزل. الرجل الكبير في السن موجود في المطبخ باحثاً وحده عن الأشياء وبصمت مطلق، وفي الوقت نفسه، وبالصمت المطلق ذاته، تلاحق المرأة المسنة أدقّ تفاصيل الغرفة محاولةً ترتيبها نظراً إلى الملل الشديد. وثمة تفاصيل كثيرة داخل المكانين. أغراض كبيرة وأخرى صغيرة منسقة أو موضوعة بصورة عفوية. لعلها تعكس داخل الأشخاص، أي أنها تعبّر عن حدوث تراكمات حولهم تفرغ ما في داخلهم، ثم يأتي يوم وتتكدس الأغراض فوق بعضها البعض، ولا حياة حقيقية.

في حين تغيب الموسيقى التصويرية عن الفيلم، تنعش الأصوات الناتجة من استخدام الإغراض والأثاث وحركة الزوجين الصمت القاسي، وتجعل المشهد حيوياً. ما إن يخرج الزوج حتى تخرج الزوجة، وبذلك ينكسر الصمت بالآلة الموسيقية المعلقة أعلى الباب.

ليس الفيلم إدانة لمؤسسة الزواج، إنما يجسّد حالة إنسانية حقيقية. وهو لا يدينها بل يدين الزمن الذي يحوّل العاشقين إلى مجرد كائنين في منزل كبير تفصل بينه الجدران، تماماً مثلما تفصل الحواجز العديدة بينهما، تاركاً في أنفسنا نحن الذين نشاهده أسئلة: لماذا؟ كيف؟ وإلى أين؟ وهل يعني مرور نصف قرن من الزمن على زواجهما نهاية الحب وغياب الرومانسية إلى الأبد؟

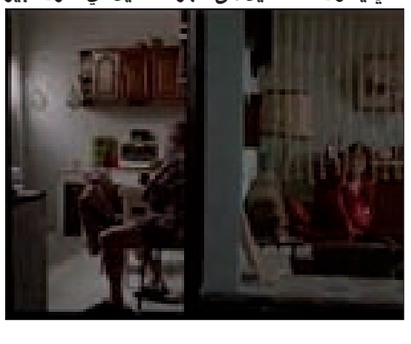

قراءة تحليليّة في رواية «صابر» للروائيّ والسينمائيّ سليم دبور ½

سمير الجندي

رغم أن كاتبها الروائي سليم دبور (مواليد 1970) أنجزها في أيلول 1993 وكان شاباً في مقتبل العمر، إلا أنها رواية تستحق أن يطلق عليها «رواية جميع الفلسطينيين»، وهكذا اعتبرها بعض الذين كتبوا عنها آنذاك، إذ تغطي بكفاءة عالية وموضوعية عقوداً من الألم والصراع والمعاناة التي عاشها الفلسطيني قبل النكبة وبعدها، حتى انتهاء الانتفاضة الأولى المجيدة وتوقيع اتفاقية أوسلو. والرواية في 491 صفحة قطعاً وسطاً وهي موزعة على 27 جزءاً وصدرت في أواخر 2013 لدى «دار الجندي للنشر».

تتميّز حوادثها بصدقية وموضوعية وإحساس كبير، وبالصورة قبل كل شيء، كأن قارئها يشاهد فيلماً سينمائياً أنجز بمهارة عالية، مستخدماً الحبكة المركبة، فهي تقوم على أكثر من حكايتين، حكاية «صابر» الشخصية المحورية، وحكاية العجوز «أبا العبد»، وحكاية «أبا محمد»، وبأسلوب ذكي ومن دون فجوات تذكر. وكي تصل آراء الكاتب إلى كل فلسطيني وعربي كتب الرواية بلغة واقعية، مباشرة، متماسكة، وأسلوب شائق سلس يحفز القارئ على قراءتها حتى النهاية، وبقوة جاذبه تدفعه إلى التفاعل مع حوادثها بلا ملل، تاركة في وجدانه مشاعر شتى بين الغضب والفرح، الحزن والسعادة، بلى حتى البكاء أحياناً.

تسلط الرواية الضوء على معاناة إنسانية طال ليلها كثيراً وتضرّج نهارها بدماء شعب مسالم كان يعيش فوق أرضه بهدوء واستقرار. فاغتصبت أرضه على مرأى ومسمع الجميع ولم يبادر أحد إلى رفع الظلم، فوجد نفسه وحيداً في مواجهة مخطط صهيوني تم الترتيب له مسبقاً بمساعدة أطراف متعددة. شعب تجرّع ولا يزال أنواع التعذيب والتقتيل كافة، والعالم أعمى لا يرى الحقيقة، أصم لا يسمع إلا صوت المحتل، أبكم لا يقول كلمة حق، بل يدعم الاحتلال ويسانده ويتجاهل صراخ الضحية!

يستهلّ الروائي سليم دبور روايته ببداية مهمة جداً شاء أن يعرّي فيها حقيقة العالم المنحاز، ويثير فيها بطل الرواية «صابر» جملة من الأسئلة المنطقية التي تحفز ذهن القارئ وتدفعه إلى البحث عن إجاباتها: «لماذا لا تتساوى القوة عند الجميع؟ لماذا يصر الضعيف على ضعفه؟ لماذا يسرف القوي في استخدام قوته؟ مَن قسَّم القوةَ؟ لماذا شعبنا هو الضحية دائماً؟ لماذا الجسد العربي مصاب بالشلل الدماغي؟ لماذا يملك زعماؤنا الذهب الأسود ولا يملكون العقل، بينما يملك الأغراب العقل وبذكائهم يسرقون ذهبنا؟ لماذا يُنصر الظالم؟ لماذا كان عليّ العيش في غرفة أشبه بقن الدجاج، وغيري ينعمون بالقصور؟ لماذا جُعلت لاجئاً؟ إلى متى ستظل السكين المتثلمة تحزّ أعناقنا والعالم صامت؟ متى سأغادر هذه المصحة الحمقاء، ومتى سيتوقف أولئك السادیون عن حقني؟». هذه الأسئلة المنطقية والمباحة تولد الرغبة والتشويق لدى القارئ لمتابعة القراءة والتفكير ملياً في أجوبتها.

ينتقي الروائي دبور شخوص روايته بحكمة، كذلك أسماء الشخوص، رغم تعمّده منح أسماء تعني عكس حقيقة أصحابها، مثل «شريف» صبي الخدمة في المقهى، وهو في حقيقة الأمر عميل يخدم المحتل، و«صابر» ابن «أبي العبد» وهو في الحقيقة ابن خائن/ كثير اللهو تسبب بمقتل شقيقه المناضل، وسعيد الرجل الشفاف وهو في حقيقة الأمر شقيّ فقد زوجته وبيته وحتى عقله. أما «صابر» و«نضال» و«دلال» فأسماؤهم تطابق حقيقتهم. كما جعل الشخصية المناسبة في المكان المناسب، وبالتالي تشكلت بتفاعلها ملامح الرواية وتكوّنت بها حوادثها الشائقة، فجميع الشخوص صادقة يمثلها البشر.

ثمة جيل الانتفاضة الأولى الذي تمثله شخصية «صابر» المحورية، وهي شخصية متميزة بجميع المعايير وبأبعادها الثلاثة، البعد التكويني والاجتماعي والوجداني أو النفسي. وللاسم هنا دلالة مهمة، فـ«صابر» يتحمّل المصائب بصبر وعاش الانتفاضة الأولى وعانى ما عاناه من قمع جنود الاحتلال وجبروتهم. وحُرم أمه منذ نعومة أظفاره، وكان في خدمة والده المشلول، وعمل في تلميع الأحذية لتوفير قوته وقوت والده، وهو خريج متفوق من الجامعة وعاطل عن العمل، وهو عاشق خجول، ومطارد، وجريح، ومعتقل من دون تهمة، ومتهم بالجنون كونه الأكثر إدراكاً لما يدور حوله، ولا يجد من يحسن الاستماع إلى ألمه فيلجأ إلى صورة والده الميت شاكياً له قسوة الحياة ومرارتها بعد موته، معتقداً أن الأموات يعلمون أخبار الأحياء.

ثمة أيضاً جيل النكبة الذي تمثله شخصية «أبا العبد» الرئيسية الثانية التي تظهر في المتن الروائي بنسبة ربما تفوق الخمسين في المئة. شخصية فذّة، حكيمة، مقاومة، حازمة، مثقفة، عاشت مرحلة الانتداب البريطاني، ثم النكبة بتفاصيلها الموجعة، ولها تجارب عديدة ومتنوعة، مؤلمة ومؤثرة كان لها الدور الأكبر في صقل الشخصية وتتويجه بتاج الحكمة. ساندت هذه الشخصية الجميلة «صابر» ودعمته بقوة وحكمة لتخطي الصعاب التي كان يواجهها. هذه الشخصية الفذّة تحسب للكاتب، إذ أراد أن يعزز مبدأ التناغم بين الجيلين في مواجهة الاحتلال؛ بحيث كان جيل الانتفاضة في المقدمة، مسنداً بجيل النكبة، إضافة إلى أنه أراد أن يخبر القاصي والداني عن امتداد الوجع الفلسطيني تحت نير الاحتلال الغاشم. ففلسطين احتلت منذ كان العجوز صبياً واستمر احتلالها، لنرى هذا الصبي في صورة رجل مسن، كأن الكاتب أراد قياس عمر الاحتلال بعمر العجوز ليقرّب الصورة إلى من لم يدرك بعد طول المعاناة وثقلها. كما شاء أن يورث الجيل الجديد الألم في رسالة مبطنة إلى الأشقاء العرب الذين تركوا الفلسطيني يقاوم الاحتلال وحده وبصور عارية من دون أن يحركوا ساكناً. وهذا يبرر سخط صابر في الفصل الأول من الأنظمة العربية التي اتهمها بالخيانة والتآمر: «كلهم مجرمون. ستظل خيانتهم تطاردهم في أحلامهم وصحوتهم وقبورهم إلى يوم يبعثون. باعونا بثمن بخس، تآمروا علينا وهم من فصيلتنا».

إلى شخوص عديدة ثانوية لعبت دوراً مهماً وكانت بمثابة العامل المساعد في التفاعل الكيميائي، ربطت الحوادث أو أكملتها وكان لها الأثر الجميل في بناء الرواية رغم أنها شخوص غير مصيرية، وبينها شخصية «نضال» الذي كان يعتقد «صابر» أنه رجل لئيم وفظ نتيجة تصرفاته حين توفي والده، بيد أنه أدرك أنه رجل شجاع وطيب، ولم تعبّر تصرفاته وقت الوفاة عن حقيقته الجميلة فأضحى صديقاً له، بل شريكاً له في الحانوت. وهو شخصية ثورية مقاومة. كذلك شخصية المجنون «جرعوش» وهي موجودة في كل مخيم وقرية تقريباً. شخصية مسالمة، عنيفة أحياناً، لكن طيبة ووفية معظم الأحيان، وحتى هذه الشخصية كان لها دور في مقاومة الاحتلال. وشخصية «أبا محمد» التي سلط الكاتب من خلالها الضوء على قسوة الفراق القهري بسبب الشتات بعد النكبة، وربما أراد أيضاً أن يطرح مسألة الأبناء العاقين الذين تخلوا عن والدهم في فترة الاعتقال بعدما أخذوا أمواله بل أرادوا زجّه في دار للمسنين، أو أراد تقسيم أدوار الرواة فالعجوز يتحدث عن النكبة وما بعدها، و«صابر» يتحدث عن الانتفاضة وهموم جيله، و«أبا محمد» يتحدث عمّا قبل النكبة. والحاجة «صالحة»، المرأة الحنون الوفية التي نفتقدها هذه الأيام. وشخصية «دلال» التي أحبها «صابر» بكامل مشاعره وبادلته الحب وتخلت عن أشياء كثيرة بسبب حبها لـ«صابر». وشخصية «الحلاق» الذي لا تغيب عنه صغيرة ولا كبيرة، وشخصية «عرفات اللداوي» الجار الوفي... إلى ما هنالك من شخوص ثانوية أضفت للرواية جمالاً في حوادث متعددة.

زمن الرواية هو زمن النكبة، وانتفاضة عام 1987 فيروي الكاتب سنوات الانتفاضة والعجوز يروي عن النكبة وما بعدها، لتنتهي حوادث الرواية عام 1993، أي زمن توقيع اتفاقية أوسلو. ويستخدم الكاتب أسلوب الاسترجاع للرواية، فوجود «صابر» في المصحة العقلية هو الراهن الذي انطلق منه «صابر»، أي أنه يبدأ من النهاية ثم ينتقل إلى العوامل التي أدت إلى وجوده في تلك المصحة، كذلك حين التقى العجوز وفاز بثقته. يلجأ العجوز إلى أسلوب الاسترجاع في سرد حكايته منذ النكبة حتى لحظة الكلام. والجدير ذكره أن الكاتب يراعي ارتباط الحدث بما قبله وما بعده وما زامنه، ضمن إطار الاسترجاع. فجمع مع وقت الحضور حاضراً آخر أو الماضي ونجح في وهب الحدث بعده الكامل ووصفه الملائم، عارضاً إيّاه مفصلاً، كأننا نشاهده أمامنا بتفاصيله، ما يجعل قارئ هذه الرواية في قمة الانسجام والتفاعل إذ لا تبقى حوادثها على وتيرة واحدة، بل بين صعود وهبوط مع الحفاظ على مداعبة عمق المشاعر.

يجعل الكاتب مخيم الجلزون المكان الذي تدور فيه الحوادث، إذ ولد وعاش فيه. وإذ يتحدث عن المخيم فهو الأقدر على وصف الحوادث التي شهدها المخيم زمن الانتفاضة الأولى. علماً أن المخيم هنا يرمز إلى جميع مخيمات اللجوء في فلسطين المحتلة وليس إلى مخيم الجلزون وحده. كما اختار الكاتب الأمكنة الملائمة للحدث، وللمكان بحسب متعارف عليه دلالات، فالمخيم يدل على المعاناة التي تسبب بها الاحتلال وهو يجمع الذين شردوا من فلسطين التاريخية، وهو شاهد حي على قذارة الاحتلال. وللمكان قدرة على خلق الانسجام بين الحدث والشخوص والقارئ.

أما حوادث الرواية فلا تستمر في وتيرة واحدة من الحدة إذ كانت تتراوح صعوداً وهبوطاً، بين المفرح والمحزن، المفجع والمضحك. نرى «صابر» في مواقف تبكي القارئ، ومواقف تضحكه، وأخرى تشعره بالخجل، ربما لأنه لم يقم بواجبه. نتابع الحوادث السابقة للصراع والتي تسببت به: استشهاد زوجته «دلال» أمام نقطة التفتيش، موت العجوز/ الشخصية المساندة لـ«صابر» ورفض «صابر» دفنه. ثم الحوادث اللاحقة والناتجة من ذاك، مثل سجن ابنه في قفص كي يحميه من الموت، قائلاً: «وضعته في قفص لأحميه من أخطبوط الموت الذي يختطف بأذياله الصغار والكبار، يسلبهم أرواحهم بدم بارد»، فظنّ الجيران أنه مجنون، ولذلك أُدخل إلى مصحّ للأمراض العقلية.

(يتبع جزء ثانٍ)